



محلل

التطبيقات

كريس ويليش يقدم لمحة عن شخصية برانكو ميلانوفيتش، أحد رواد الباحثين في مجال عدم المساواة

عاش

برانكو ميلانوفيتش طفولته في يوغوسلافيا الشيوعية حيث شهد احتجاجات عام ١٩٦٨ عندما احتل الطلاب حرم جامعة بلغراد رافعين لافتات كتب عليها «تسقط البرجوازية الحمراء».

ويتذكر ميلانوفيتش، الذي يعمل حاليا في تدريس علوم الاقتصاد في جامعة مدينة نيويورك، أنه كان يتساءل عما إذا كانت عائلته تنتمي إلى هذه الجماعة الممقوتة. فقد كان والده يعمل مسؤولا بالحكومة، وكان الصبي عكس العديد من الأطفال في يوغوسلافيا في ذلك الوقت يتمتع بغرفة نوم خاصة — وهي علامة على التميز في مجتمع كان من المفترض أنه غير طبقي. وأكثر ما يتذكره هو شعوره بالإثارة عندما كان يمشي متلكتا مع أصدقائه في ذلك الصيف بالقرب من أسوار الحرم الجامعي لمشاهدة الطلاب وهم يرتدون شارات كارل ماركس الحمراء.

ويقول ميلانوفيتش في مقابلة شخصية معه «أعتقد أن الجوانب الاجتماعية والسياسية للاحتجاجات لم تتضح لي سوى لاحقا». وبالرغم من ذلك، «فإن عام ١٩٦٨ كان، من عدة جوانب، عاما فاصلا» في رحلة فكرية صعد نجمه خلالها كأحد أهم الباحثين في مجال عدم المساواة. وكان عدم المساواة هو موضوع رسالة ميلانوفيتش التي حصل بموجبها على درجة الدكتوراه من جامعة بلغراد، وذلك قبل أن يصبح عدم المساواة صيحة في عالم الاقتصاد بعدة عقود.

ويشتهر ميلانوفيتش اليوم بدراسته الرائدة بشأن عدم المساواة في الدخل على مستوى العالم خلال الفترة من ١٩٨٨ إلى ٢٠٠٨، وهي الفترة التي بدأت بسقوط حائط برلين — الذي يعتبر بداية نهاية الشيوعية في أوروبا — وانتهت بالأزمة المالية العالمية.

وتناول المقال، الذي صدر في عام ٢٠١٣ واشترك في تأليفه كريستوف ليكنر، ما يعرف باسم «منحنى الفيل» بسبب شكله (انظر الرسم البياني). ويوضح المقال أن العشرين عاما التي يصفها ميلانوفيتش بأنها فترة «تعاضم العولمة» شهدت زيادة كبيرة في الثروات ولكنها لم تكن موزعة بالتساوي عبر بلدان العالم. وشهدت الطبقات المتوسطة في الاقتصادات النامية — لا سيما في آسيا — زيادة هائلة في الدخل. وانطبق ذلك أيضا على الواحد بالمائة من أصحاب الدخل الأعلى حول العالم، أو «بلوتوقراطيي العالم». وفي الوقت نفسه، ظلت دخول مواطني الاقتصادات المتقدمة في الشريحة الأدنى من الطبقة المتوسطة ثابتة. وتكمن قوة منحنى الفيل في بساطته. فهو يلخص بسلاسة مصدر السخط الكبير بين أفراد الطبقة المتوسطة في الاقتصادات المتقدمة، وهو سخط كان بمثابة المحرك الرئيسي للشعوبيين من أقصى طرفي الطيف السياسي، والدعوات إلى فرض الحواجز التجارية والقيود على الهجرة. ويقول توماس بيكيتي، مؤلف الكتاب الأكثر مبيعا بعنوان *Capital in the Twenty-First Century*، «كان لبرانكو تأثير كبير على بحوث عدم المساواة على مستوى العالم، لا سيما النتائج التي خلص إليها بشأن منحنى الفيل». وأكد

بيكيتي وزملاؤه النتائج الواردة في دراسة صادرة عام ٢٠١٨ توصلت إلى أن الواحد بالمائة من أصحاب الدخل الأعلى حول العالم بلغ نصيبهم من مجموع النمو ضعفي نصيب نسبة الخمسين بالمائة من أصحاب الدخل الأدنى خلال الفترة من ١٩٨٠ إلى ٢٠١٦.

ويقول بيكيتي إن نتائج ميلانوفيتش «تبدو أروع كثيرا من الأفكار التي تم اقتراحها في البداية. فالفيل أصبح أشبه بالمأموت».

وقد استهان خبراء الاقتصاد طويلا بدراسة عدم المساواة. وعاش الكثير منهم في عالم نظري يسكنه فرد أسطوري يعرف باسم الإنسان الاقتصادي أو الرجل العاقل الذي لديه دافع وحيد يتمثل في تعظيم رفاهيته. ولم تكن للفروق بين الأشخاص أو المجموعات أي أهمية. فالتنوع لم يكن مهما، وكان التنميط هو المقياس السائد.

وفي عالم اليوم الذي يضم أفراد عقلانيين متماثلين، حققت قوى العرض والطلب الأثر المرجو منها، حيث تحددت على أساسها أسعار السلع وكميتها وحجم رأس المال والعمالة على نحو أدى إلى تعظيم رفاهية المجتمع ككل. أما توزيع الثروة أو الدخل فلم يكن له أي أهمية، بل كان مجرد منتج ثانوي لقوى السوق.

ويقول ميلانوفيتش «إن قوى السوق توفر الحل لكل الأمور. فالمسألة لم تكن أبدا مسألة النظريات السائدة — ولا تزال كذلك».

ثم وقعت الأزمة المالية العالمية في عام ٢٠٠٨، «وتزايد معها الوعي بأن أصحاب أعلى ١٪ أو أعلى ٥٪ من الدخل حققوا نموا في الدخل فاق ما حققته الطبقة المتوسطة بمراحل».

كذلك تطورت دراسة عدم المساواة بفضل البيانات الكثيرة التي أصبح من الممكن تحليلها باستخدام أجهزة كمبيوتر قوية للغاية، مما زاد من سهولة تقسيم مجموعات المستهلكين والعاملين مجهولي الهوية إلى مجموعات ذات خصائص مشتركة. ويقول ميلانوفيتش إن البيانات الكبيرة «تتيح دراسة التباينات، وعدم المساواة يقوم بطبيعته على التباين».

ودائما ما كانت البيانات من المجالات التي حازت على اهتمام ميلانوفيتش، إلى جانب اهتمامه بالطبقات الاجتماعية والذي زاد كثيرا خلال سنوات دراسته بالمرحلة الثانوية في بروكسل حيث كان والده، الخبير الاقتصادي، مبعوث يوغوسلافيا إلى الجماعة الاقتصادية الأوروبية حينذاك.

ويقول ميلانوفيتش «المدرسة الثانوية في بلجيكا غلب عليها الطابع الماركسي — وأعتقد أن الوضع كان مماثلا في فرنسا».

وكان زملاؤه في الفصل منقسمين ما بين أبناء يساريين متأثرين بالحركات الطلابية التي ظهرت في أواخر الستينات وأوائل السبعينات من القرن الماضي، وبين أبناء «برجوازيين». ونظرا لتميزه بوصفه ابنا لدبلوماسي يمثل حكومة يفترض أنها عمالية، لم يتوافق برانكو في صغره مع أي من المجموعتين. ويقول عن ذلك «كان الوضع غريبا للغاية».

كان برانكو حقاً من أهم الخبراء في مجال توزيع الدخل في ذلك الوقت». فقد تركز اهتمام ميلانوفيتش على قضايا الفقر وتوزيع الدخل.

وكانت البيانات الكثيرة التي يجمعها البنك الدولي موردا لا يقدر بثمن، وأوحت لميلانوفيتش بإجراء مقارنات قطرية لظاهرة عدم المساواة، وكانت هذه المقارنات مجالا جديدا لم يسبقه إليه أحد. وفي أحد أيام عام ١٩٩٥، كان ميلانوفيتش يتحدث مع رئيس الوحدة الذي جاء خلفا لغيلب.

«لقد طرأت هذه الفكرة على رأسي فجأة: انظر إلى جميع هذه البيانات التي جمعناها من مختلف أنحاء العالم. نحن ندرس كل بلد على حدة، ولكن لم يسبق لنا جمعها معا في دراسة واحدة». ويعددها بأربع سنوات، نشر أول دراسة عن التوزيع العالمي للدخل استنادا إلى مسح الأسر المعيشية. وفي السنوات اللاحقة، نشر ميلانوفيتش العديد من الدراسات. وإلى جانب عمله في مجال اقتصاديات ما بعد الحقبة الشيوعية، استمر في دراسة عدم المساواة وارتباطها بالعلومة. وغطت مقالاته وكتبه مجموعة اهتماماته الواسعة التي تضمنت التاريخ والأدب والرياضة.

ففي إحدى مقالاته، يقدر ميلانوفيتش متوسط مستوى الدخل وعدم المساواة في بيزنطة في عام ١٠٠٠. وتتناول دراسة أخرى الروابط بين حرية انتقال العمالة وعدم المساواة في رياضة كرة القدم الذي يصفها بأنها الرياضة الأكثر عولمة على الإطلاق.

فقد توصل إلى تزايد عدم المساواة بين أندية كرة القدم نظرا لأن الفرق الأوروبية الاثني عشر الكبرى يمكنها شراء أفضل اللاعبين حول العالم. وعلى الناحية الأخرى، أدت حرية انتقال لاعبي كرة القدم إلى الحد من عدم المساواة بين الفرق الوطنية. والسبب في ذلك أن اللاعبين من البلدان الصغيرة يمكنهم شحذ مهاراتهم في أندية الفرق الكبرى والعودة إلى بلدانهم للمنافسة في فرقهم الوطنية.

وقد أوحت له حواراته الأدبية مع زوجته ميشيل دي نيفيرز، وهي متخصصة في تمويل الأنشطة المناخية في مركز التنمية العالمية، بكتابة تحليل غير مسبوق عن رواية «Pride and Prejudice» لجين أوستن. فقد أشار ميلانوفيتش إلى أن الرواية تركز على المال بقدر تركيزها على الحب، ووضع تقديرات لدخول مختلف أبطال الرواية، وحلل تأثير الثروة على اختيار بطلة الرواية، إليزابيث بينيت، لأقربائها. وفعل الأمر نفسه مع رواية «Anna Karenina» لليو تولستوي. وصدر المقالان في كتاب لميلانوفيتش بعنوان *The Haves and the Have-Nots: A Brief and Idiosyncratic History of Global Inequality*, 2011.

ويعد كتابه الآخر بعنوان *Global Inequality: A New Approach for the Age of Globalization* إنجازا مهما جمع فيه خلاصة سنوات دراسته لظاهرة عدم المساواة داخل البلدان وفيما بينها منذ الثورة الصناعية.

وعلى عكس بيكيتي الذي يقول بأن دائرة عدم المساواة تتسع اتساعا كاسحا في ظل الرأسمالية، يرى ميلانوفيتش أن ظاهرة عدم المساواة تحدث في صورة موجات أو دورات رهن تأثير ما يسميه بالقوى الحميدة والقوى الخبيثة. ففي الاقتصادات المتقدمة، اتسعت التفاوتات بين الدول خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حتى ظهور القوى الخبيثة الممثلة في الحرب والتضخم المفرط والتي أدت إلى الحد من هذه التفاوتات من خلال تدمير الثروة.

وفي الجامعة ببلغراد، اهتم ميلانوفيتش في البداية بالفلسفة، ولكنه قرر أن الاقتصاد سيكون مجالا عمليا على نحو أكبر، فضلا عن أنه سيتيح له الجمع بين اهتماماته بالإحصاء والطبقات الاجتماعية.

وبعد الدراسات العليا، التحق ميلانوفيتش كزميل بجامعة ولاية فلوريدا في تالاهاسي حيث انبهر بالوفرة الأمريكية — وجبات الطعام الكبيرة غير المكلفة، وأكواب القهوة التي يعاد ملؤها مجانا، والسيارات الفارهة — إلى جانب فرط عدم المساواة بين الدخل والتميز العنصري الصارخ.

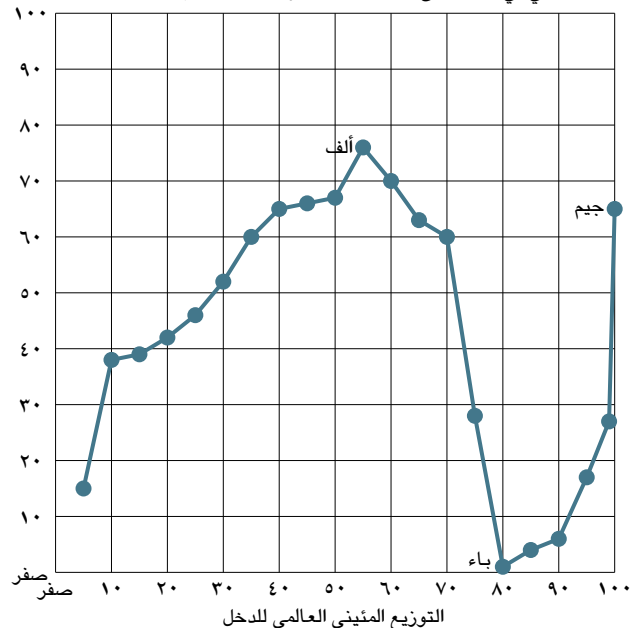
وعاد ميلانوفيتش بعد عامين إلى بلغراد للعمل على رسالة الدكتوراه حول عدم المساواة في يوغوسلافيا، حيث حلل بيانات نادرة مستمدة من مسح لقطاع الأسر المعيشية حصل عليه من صديق كان يعمل بالمكتب الإحصائي الفيدرالي.

وفي حين أثارت رسالة الدكتوراه الاستغراب والاستياء في يوغوسلافيا الماركسية — إلى جانب قراره بتجنب الانضمام إلى الحزب الشيوعي — فقد بدأ على إثرها مسيرة مهنية استمرت لعقدين بإدارة البحوث بالبنك الدولي. ويقول الآن غيلب الذي عين ميلانوفيتش للانضمام إلى فريق صغير يعمل على دراسة التحول إلى اقتصاديات السوق في أوروبا الشرقية بعد انتهاء حقبة الشيوعية «لقد

توزيع غير متكافئ

خلال الفترة من ١٩٨٨ إلى ٢٠٠٨، كانت مكاسب الدخل أكبر ما تكون بين الأفراد قرب المثني الخمسين في التوزيع العالمي (النقطة ألف) والأفراد الذين يشكلون نسبة الواحد بالمائة الأكثر ثراء (النقطة جيم). بينما كانت المكاسب أقل ما يكون بين الأفراد قرب المثني الثمانين على مستوى العالم (النقطة باء)، والذي ينتمي أغلبهم إلى الشريحة الأدنى من الطبقة المتوسطة في الاقتصادات المتقدمة.

(التغير الحقيقي في الدخل على أساس تعادل القوى الشرائية، %)



المصدر: برانكو ميلانوفيتش.

ميلانوفيتش اسم «ميزة الجنسية» التي تنشأ عنها ضغوط الهجرة نظرا لأن المولودين في البلدان الفقيرة يسعون إلى تحقيق الثراء في البلدان الأغنى.

ويشير ميلانوفيتش إلى أن وقف الهجرة ليس خيارا أسهل من وقف حركة السلع أو رأس المال. ولكن من غير الواقعي أيضا أن نتوقع من مواطني الاقتصادات المتقدمة فتح حدودهم. والحل: السماح بدخول مزيد من المهاجرين مع حرمانهم من حقوق الجنسية الكاملة، وربما فرض ضرائب عليهم لتعويض المواطنين الذين تتم إزاحتهم من صفوف القوة العاملة.

مع تنامي التفاوت في الدخل، ستتفاقم الاضطرابات الاجتماعية والخلافات السياسية — وهو تكهن أكدته أحداث مثل خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي والاحتجاجات التي اجتاحت فرنسا.

والأعمال الحالية لميلانوفيتش تعود به إلى جذوره في يوغوسلافيا بصورة ما. إذ تتضمن دراسة هيكل الطبقات في جمهورية الصين الشعبية، مع التركيز خصوصا على

ومع تنامي التفاوت في الدخل، ستتفاقم الاضطرابات الاجتماعية والخلافات السياسية — وهو تكهن أكدته أحداث مثل خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي والاحتجاجات التي اجتاحت فرنسا.

الفئة التي تمثل أعلى ٥٪ في توزيع الدخل. وستكون هذه الأعمال جزءا من كتابه التالي بعنوان *Capitalism, Alone* الذي يشير إلى أن الصين استحدثت شكلا مميزا من أشكال الرأسمالية سيتواجد جنبا إلى جنب مع التوجه الليبرالي السابق.

إلى أين تتجه دراسة عدم المساواة؟ وفقا لميلانوفيتش، أصبح لهذه الدراسة جانبان نتيجة البيانات الجديدة المتاحة. الأول هو عدم المساواة في توزيع الثروات من منظور بيكيتي، والآخر هو عدم المساواة بين الأجيال، وهو موضوع أثاره اقتصاديون مثل راج شيتي من جامعة هارفارد.

ويقول ميلانوفيتش إن هذين المجالين «مثار لاهتمام الشباب الذين أصبح لديهم وعي اجتماعي كبير في الوقت الحالي. وعلى الجانب الآخر، يتمتع هؤلاء الشباب بدرجة كبيرة من الذكاء ويرغبون في العمل على موضوعات معقدة». ويضيف قائلا «أنا متفائل للغاية في هذا الشأن». ^{FD}

كريس ويليش من فريق العمل في مجلة التمويل والتنمية.

وبعد الحرب العالمية الثانية، ساهمت القوى الحميدة، مثل تصاعدية الضريبة وتزايد قوة النقابات العمالية وزيادة فرص الحصول على التعليم، في الحد من عدم المساواة.

وكان سقوط حائط برلين حدثا فاصلا، حيث أعاد دول الاتحاد السوفييتي السابق إلى الاقتصاد العالمي في الوقت الذي بدأت فيه الصين في الانفتاح هي الأخرى. وأدى النمو السريع في العالم النامي إلى الحد من عدم المساواة بين البلدان، بينما أدى إلى اتساع دائرة عدم المساواة في العالم المتقدم حيث ظلت دخول الطبقة المتوسطة ثابتة وازدادت ثروات الأثرياء.

ماذا يحمل المستقبل؟ يبدو المستقبل جيدا بالنسبة لجزء كبير من بلدان العالم النامي، لا سيما آسيا، التي ستواصل السعي للحاق بركب البلدان الغنية. أما في الاقتصادات المتقدمة على الجانب الآخر، فتبدو الآفاق أكثر ضبابية. ففي الاقتصادات المتقدمة، ستواصل القوة المزدوجة الممثلة في العولمة والابتكار التكنولوجي اعتصار الطبقة المتوسطة. وسيترجع الحراك الاجتماعي نظرا لأن النخبة الراسخة في المجتمع تتاح لها فرص أكبر للحصول على التعليم العالي مرتفع التكلفة وتستغل نفوذها السياسي في وضع سياسات «مناصرة للأغنياء»، مثل النظم الضريبية التفضيلية.

ومع تنامي التفاوت في الدخل، ستتفاقم الاضطرابات الاجتماعية والخلافات السياسية — وهو تكهن أكدته أحداث وقعت منذ صدور الكتاب في عام ٢٠١٦ مثل خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي والاحتجاجات التي اجتاحت فرنسا. ويشعر ميلانوفيتش بالقلق إزاء هذه الانقسامات التي قد تؤدي إلى «انفصال» الديمقراطية عن الرأسمالية، وما سترتب على ذلك من بلوتوقراطية في الولايات المتحدة الأمريكية وشعبوية ومعاداة للمهاجرين في أوروبا.

وبالرغم من الجدل الكبير الذي ظل دائرا حول عدم المساواة على مدى العقد الماضي، «لم تحدث أي تغيرات ملموسة» في السياسات وفقا لميلانوفيتش. «فنحن في طائرة بدون طيار تسير تلقائيا نحو مزيد من عدم المساواة. ولكنني لم أفقد إيماني كليا في إمكانية التغيير».

كذلك فإن الحل التقليدي — المتمثل في إعادة توزيع الدخل — لن يكون مجديا كما كان في الماضي بسبب حرية انتقال رأس المال التي تتيح للأثرياء حماية دخولهم في بلدان الملاذ الضريبي. وبدلا من هذا الحل، ينبغي أن تهدف السياسات إلى إعادة توزيع «الموارد» مثل الثروات والتعليم. وتتضمن هذه التدابير زيادة ضرائب التركات، والسياسات التي تشجع الشركات على توزيع أسهمها على العاملين، وزيادة التمويل الحكومي لقطاع التعليم.

ويقول ميلانوفيتش «لن يتحقق ذلك بين ليلة وضحاها. ولكنني أعتقد أنه ينبغي التفكير في التحول إلى عالم رأسمالي توزع فيه الموارد على نحو أكثر تكافؤا عنها في الوقت الحالي».

كذلك تناول ميلانوفيتش قضية معقدة، وهي عدم المساواة بين البلدان. ووفقا لحساباته، فإن المواطن الأمريكي يزيد دخله بمقدار ٩٣ ضعفا عن دخل أي شخص مولود في البلد الأكثر فقرا في العالم لا شيء سوى أنه مولود في الولايات المتحدة الأمريكية. وهو ما أطلق عليه